التمـــع والرقـى البشـرى

للإنسان قصة معروفة يرويها الطبيعيون وهي أنه فصيلة من الحيوان أخذت مكانـا بين الأحياء بعد جهاد عنيف وصراع مخيف قام بين الحيوان نفسه في بادىء الأمر ثم بينـه وبين الإنسان. وهو صراع يعتمد على القوة وحدها ويتخذ منها أداة لتحقيق غرض الحياة إلا وهو بقاء الأصلح وفناء الضعيف الذي لا يقدر على احتمال بأساء العراك، صـراع لا يعرف غير الوحشية والقسوة لأنه لا غرض له إلا التفوق والفوز ببة الحياة.

استسلم الحيوان لهذه الحياة القاسية لأنه لا قدرة له على التفكير، فهـو لا يقـدر مخاطرها، ويخضع لها خضوعاً غريزياً وهو ما يزال يسير على سنتها، ينقرض منه ما ينقرض ويتحكم ما يتحكم، أما الإنسان فكان له شأن آخر، فهو كما يقول الفيلسوف الإنجليزي هوبز قدر هول الفناء الذي يعقب حتماً عن استمراره في حياة التناحر ففكـر في إنائهـا ووجد إلا سبيل إلى ذلك إلا بالاجتماع. فهو يمكن له من حياة يتحول فيها من الوحشية والفردية أو من حياة الأسرة إلى حياة اشمل يشترك فيها مع غرباء في تحمل أعبـاء الحيـاة وأول شرط لهذه الحياة الجديدة هو منع الاعتداء وحماية الأرواح في مقابل فروض كانـت فيما بعد أصلاً للحقوق والواجبات.

على أن غرائز الإنسان المكبوتة وجدت لها متحولاً تبين أنه أشد خطـرا وأعظـم فتكامن عراك الأفراد عنى به تناحر الجماعات، وهو الذي تطور من نزاع بين قبيلـتين إلى تطاحن بين أمتين، واستأنف قانون تنازع البقاء تحكمه في حياة الأمم وأخذت الأمم القوية تسود والأمم الضعيفة تتخاذل وتفنى، وهو صراع بين القوى الجسيمة والمواهب النفـسية على السواء فكلنا يعلم ما تتطلبه الحرب من اختراعات وحيل هي آيات علـى التفـوق الذهني بل هي آيات على المتانة الخلقية من إدارة وإخلاص وشجاعة.

فالإنسان الاجتماعي ما برح كأخيه الطبيعي خاضعاً لقوانين الطبيعة التي خلقـت الإنسان من بين الحيوان، ولكن التمع خلق لنا قوانين أخرى أهمها جميعاً الأخلاق، لست الآن بصدد مناقشة أصل الأخلاق وهل هو اجتماعي أم طبيعي أم الهي، فآيا كان الـرأي فأنه لا يمكن تصور أخلاق من غير مجتمع، فالتمع على كل حال هو المكان الطبيعي لنمو

الأخلاق سواء أكان علتها المفردة أم علتها الجزئية أم كان الظرف الممهد من غير اشتراك فعلى.

إذن فقد تعلم الإنسان الأخلاق في المجتمع. والأخلاق منها المحلى الذي يتميز به بلد عن بلد ومنها العالمي الذي يدين به جميع البشر. فالأخلاق من هذه الناحية رابطة عالميـة تربط الإنسان بأخيه الإنسان وتوجه عقله إلى التفكير في الإنسانية و إلى تجـاوز الحـدود الاجتماعية وهذا يمهد إلى تطبيق القواعد الأخوية المحلية على المجتمع الانسانى الكبير وخلق الآداب الإنسانية العامة، فإذا أضفت إلى ذلك اتصال المجتمعات عن طريق تبـادل الآراء والثقافات والرحلات أمكنك أن تلمس الأسباب التي مهدت لوجـود هـذه الأخـلاق الإنسانية العالية التي تناهض مباديء الطبيعة القاسية مناهضة تامة بعد أن ناهضتها المباديء الاجتماعية مناهضة جزئية، تلك المبادئ التي لا تتفق مع تنازع البقاء وبقاء الأصلح المبادئ التي تقوم على المحبة والسلام وتدعو للضعيف كما ندعو للقوى، و قـد دعـا إلى هـذه الأخلاق وبشر با أنبياء وقديسون واعتبروها كمال الكمالات وملاذ البشر من الهـلاك والفناء والشر وسبيله إلى السعادة والسمو.

ولكن قد يقال إذا كانت هذه الأخلاق التي تتكلم عنها تناهض الطبيعة، وقوانينـها تلك القوانين التي أبدعت الإنسان أكمل المخلوقات، فالمعقول أنه لابد أن ينتج من حلـها محل قوانين الطبيعية وقف التقدم البشرى وجمود التطور عند الإنسان، بل ليس الأمر مجرد توقف عن السير إلى الأمام ولكنه تدهور لا محيد عنه لأن الأخلاق تمكن للضعفاء وتساوى بينهم وبين الأقوياء وهم ولا شك أوفر عدداً وأعز نفرا فيتغلب عنـصرهم، ويكتـسح نسلهم على حساب المتفوقين الذين ينقرضون شيئا فشيئا لضمور مواهبـهم ومزايـاهم. فالأخلاق إذا نذير بالقضاء على الكمال والقوة وبشرى للضعف والشر ومابينها من رذائل طبيعية، أن صح لنا أن نقول ذلك.

ومن هنا نشأت فلسفة نيتشة فقد فرق بين نوعين من الأخلاق أخـلاق الـسادة وأخلاق العبيد. وقال أن أخلاقنا التي يقومها التهذيب والرحمة والمساواة هي أخلاق تسود الضعفاء وتمكن للضعف وتثبت أقدام العبودية. ووجه لذلك حملات شـداد إلى البوذيـة واليهودية والمسيحية والديموقراطية واعتبرها أطوارا متتابعة لأخلاق العبودية، وقال أيضاً أن

الإنسانية حلقة من سلسلة لا يرى طرفها وليست حداً وناية وكما خرج الإنسان مـن الحيوان فمنطق التطور يسلم بإمكان خروج أنسأن أعلى من الإنسان الحالي على شرط أن يترك التطور وشأنه ليعمل تبعاً لقوانينه الطبيعية أما الأخلاق فهي عقبة كؤود في سبيل هذا التطور.

ولكن التضاد بين الأخلاق وقوانين الطبيعة لا يتعدى الظاهر أو قل أنه تـضاد في الوسيلة دون الغاية من قوانين الطبيعة هي الكمال والقوة في العقل والجسم فأن التمع لا ينكر هذه الكمالات والأخلاق لا تثور عليها ثورتا على قوانين الطبيعة القاسية فـالقوة العقلية والجسمية من الفضائل الاجتماعية وما تزكيه الأخلاق مادام موجها في سبيل الخير والصالح العالم.

أفليس لو كانت الأخلاق تضاد قوانين الطبيعة في الوسيلة والغاية لكانت تذم غايتها ولا ترضى عنها وتنبذ من يحوزها ؟ فالحق كل الحق أن الأخـلاق تقـصد إلى الكمـال وتتوخى طريقه والحق كذلك أن التمع يطلب هذا الكمال لأنه هو الذي أبدع الأخلاق أو على الأقل لا يمكن أن تتناقض آماله مع آمالها إلا أنه لا يتخذ من الوسائل مـا تتخـذ الطبيعة وإذا اتخذ شيئا من وسائلها فهو يهذبا ويقيدها.

يبقى سؤال وهو كيف تنبذ الأخلاق قوانين الطبيعة وتعمل في نفس الوقت علـى تحقيق غايتها ؟وهو من الأسئلة التي شغلت بال كثير من الفلاسفة الذين مهدوا للأخـلاق الاجتماعية مثل سبنسر ورودلف جيرنج ووسترمارك: يرى سبنسر مثلاً أن الحروب تفنى الشعوب وتقضى على كل ما فيها من خير وشر. ويلاحظ من ناحية أخرى أن الـسلام يكثر الضعفاء ويسلطهم على التمع مما تكون نتيجته الحتمية تسلط آدابم بما فيهـا مـن خور وجبن ولكنه وجد أن العدالة توفق بين الحالتين وتحمى السلم مـن شـر الـضعف وتسلطه و تمهد السبيل للأخلاق لبلوغ الكمال الذي تتوخاه القوانين الطبيعية لأنا تعطى كل ذي حق حقه وتضع كل أنسأن موضعه فتطهر الأخلاق من الضعف الذي قد يسوق إليه المبالغة في إتباع بعض قواعدها كالمساواة و الرحمة، فقد يكون من الرحمـة مـثلاً أن تضحى بحياتك في سبيل شيخ فأن ولكن العدل لا يقضى بذه التضحية. وقـد توجـب الرحمة العفو عن كثير من الرمين ولكن العدالة تأخذهم بالشدة اللازمة لتطهير التمع.

فالأخلاق تحمى نفسها بنفسها تأمر بالرحمة كما تأمر بالقسوة وبذلك تضع كمال الطبيعة نصب عينيها من غير أن تلجأ إلى وسائلها البدائية.

وفرق بين الكمال الذي يتوخى غايته التمع وبين الطبيعة التي تريد الأقوى من غير قيد و لا شرط، فالقوى بجسمه وبعقله هو الذي يستحق في نظرها، نعمة الحياة وتحفظها له مهما كان حظه من القسوة والشر كبيرا، والتمع يريد القوى أيضاً في الجسم والعقل ولكنه يشترط أن يكون كذلك قويا في خلقه ولأتناقض بين هذه الأحوال جميعا، مادام تنظمها العدالة وتوجهها إلى سبيل الخير فالقوى يحكم في التمع ولكنه لا يقتل الضعيف بل أن من مزايا قوته أن يترفع عن منازلة من هو اضعف منه ويرى من واجبه أن يدفع عنه الأذى ويأخذ بيده في طريق الحياة الوعر.

وثمة فرق آخر هو أن الطبيعة تسير الحيوان في الطريق الذي تريد بغرائزه وهو يطيعها غير دار بمقصدها ويرضخ لها رضوخاً آليا لا تقدير فيه فآماله لا تتعدى الطعام والأنثى والمسكن أما الرجل الاجتماعي فله ضمير حساس يقدر به نفسه ومن حوله ويعرف أن له غاية يعمل لها وأنه يسعى لبلوغ مثلاً أعلى وما الطعام والأنثى والمسكن إلا وسائل لغايات عليا يحيا لها. فالحياة الاجتماعية الخلقية لا تعوق عن الكمال وهي فوق ذلك تخلق للفرد شخصية خلقية يجب أن نعدها كسباً له من الوجهة الإنسانية.

وعندي أن التمع يزود الفرد بعواطف كثيرة تحثه على الرقى والسمو فالفرد اذا وجد بين أفراد اختلجت في قلبه عواطف الأثرة وحب السيطرة والتفوق مما يدفعه للعمل على الظهور والفوز، والتمع كذلك يعبد الأبطال عبادة في الحياة وفي الممات ويضيف إليهم من الفضل ما هو حق أن يضيف إليهم وما هو عدل أن يضاف إليه وهو وكل ذلك يغرى بالبطولة والكمال.

ولكن ما الرأي في شرور التمع ؟ حق أن شرور التمع لا تحصى وقد كانت موضع نقد وتشاؤم كثير من المفكرين حتى ذهب بعضهم إلى حد الدعوة إلى الحياة الطبيعية و لكن الكمال التام كان دائماً ولكل وجه من الفساد خير يقابله ولقد جاهدت الأخلاق كثيرا وما تزال تجاهد في سبيل الإصلاح فلا معنى لليأس، و يجب ألا نجعل لليأس

سبيلا إلى نفوسنا حتى لا تسود الحياة في أعيننا ويملأ قلوبنا التشاؤم فنخسر بجة الحيـاة ومسراتنا.

والحق أن ذم التمع لشروره يدل على عدم تقديرنا للخير الذي ظفرنا به في التمع وليصح أن هذه الشرور ضرورية للحياة الاجتماعية – وهذا غير صحيح – لوجب أن نقبلها كثمن للحياة في التمع لا أن ننبذ التمع من اجلها، وخلاصة القول أننا يجب أن ننظر إلى التمع كما ينظر المؤمن إلى ربه وقد تصيب المؤمن الشرور ويعلم أن الله أصابه بها ولكنه لا يذم الله بل يشكره ويرجو منه خيرا عاجلاً يعوض عليه شرا آجلاً وليس ذلك بكثير فالتمع هو الذي خلق لنا أكمل ما في أنسانيتنا وهو سبيلنا إلى الرقى والكمال.

وليذكر الذين يقولون أن الطبيعية تخلق لنا الغرائز والمواهب أن هذه المواهب ما كانت تخلق العلم والأدب والفن لولا التمع على أن ذلك يجب إلا يخدعنا عن حقيقة مهمة وهي أنه إمامنا عمل جليل خطير يتطلب الأجيال الطويلة والتجارب الكثيرة لخلاص الإنسانية وكمالها.